

خطاب التخيل يحاور خطاب التفكير عبد الله العروي يساكن الخطابين

د. عبد الحق بلعابد

جامعة الملك سعود، السعودية – وجامعة الجزائر 2

Abstract

Human experiences are not empty of thinkers and philosophers since Aristotle and Al-Farabi, and Augustine and IbnRushd, Abu Hayyan Al tawhidi and Nietzsche, and had them in literary studies, because the literature is a fruit not anyone can taste, but everyone enjoy it .

One of these thinkers is the modern novelist Moroccan thinker Abdallah Alarawi, the owner of enterprises knowledge in contemporary Arab thought, looking at the cognitive system for concepts remains controversial in human thought that wanted to enter the Arab research such as, mental concept, the concept of the State, freedom, and the ideological. .

لا تخلو التجارب الإنسانية من وجود مفكرين وفلاسفة منذ أرسطو والفارابي، وأوغسطين وابن رشد، وأبو حيان التوحيدي ونيشيه، إلا وكان لهم نصيب في التدبيرات الأدبية، لأن الأدب فاكهة يتذوقها الخواص، ويتفكه بها العوام.

من هنا جاءت فكرة البحث عن جامع بين الفكر والأدب وهما في جدل يسبحان، لهذا وجدنا بعض المفكرين العرب يجعلون من الأدب توطئة لمقولاتهم الفكرية لما يتميز به من وظيفة تواصلية، وقوة تبليغية بين فئات مختلفة من جمهور القراء.

ومن هؤلاء المفكرين في العصر الحديث المفكر الروائي عبد الله العروي، الذي يعد من أصحاب المشاريع المعرفية في الفكر العربي المعاصر، والتي تبحث في المنظومة المعرفية لجملة مفاهيم ما تزال محل جدال في الفكر الإنساني وأراد أن يدخلها في مجال التداول البحثي العربي، ومنها مفاهيم العقل، والدولة، والحرية، والإيديولوجيا.

وينخرط العروبي كمتقف عضوي في مساءلة مفهوم المثقف نفسه وكيف يشتغل داخل مجتمعه العربي، من خلال سلسلة كتب ومقالات ومناقشات عربية، وقد عمل على توصيل أطروحاته بالانخراط في الكتابة السردية كالكثير من المفكرين الذين عمدوا إلى تبليغ مشاريعهم الفكرية إلى قطاعات جماهيرية أخرى من خلال أعمال أدبية إبداعية، فاستطاع العروبي من خلال روايته الفاتحتين واللتين تعدان من بدايات الكتابة الروائية المغربية وهما "الغربة" و"اليتيم" أن يطرح فيهما نموذج المجتمع المغربي كباقي المجتمعات العربية الخارجة آنذاك من الاستعمال، وتبحث عن هيكله مؤسساتها، ولكن بأي رؤية معرفية وضمن أي شرط تاريخي؟

لقد قال في كتابه المهم **الإيديولوجية العربية المعاصرة** وهو بصدد الحديث عن الإبداع والرواية تحديداً، أن القصة هي صوت المجتمع الذي يصرخ عالياً ليسمع القهر والمعاناة عكس الرواية، غير أنه بعد أقل من سنتين لجأ لكتابة الرواية (رواية الغربة) وهذه مفارقة تحتاج إلى نقاش، لما رآه في الرواية من إمكانات كتابية وفضائية تسمح بطرح المشاكل المعقدة للمجتمعات، وما تمتاز به من تعددية صوتية بحسب باختين، ليتبعها بعد ذلك برواية مطورة لرؤى الرواية السابقة وهي (رواية اليتيم)، لهذا سنعمل عن البحث عن هذه الجدلية الموجودة بين الفكري والأدبي في أعماله:

1- برازخ الممكنات بين الفكري والأدبي عند عبد الله العروبي.

2- ميزان العقل المعرفي (والتاريخي خاصة) عنده.

3- ترجمان العقل التخيلي في أعماله.

ونتهي البحث بالإشارة إلى إمكانية انتقال الأعمال الإبداعية الأخيرة

للعروبي من رواية المجتمع إلى مجتمع الرواية.

1-برازخ الممكنات بين الفكري والأدبي عند العروبي: إن عبد الله

العروبي صاحب مشروع فكري، لا يمكنه إلا أن ينظر للمجتمع العربي في شموليته وهو يتحرك تاريخياً واجتماعياً بكل قطاعاته وفئاته، فكثيراً ما كانت واو العطف بين الفكري والأدبي والثقافي والسياسي، هي نفسها واوا للانعطاف التاريخي المكرس لهذا العقل النقدي الجدلي، الذي يريد أن يفهم ويفسر أزمات الإنسان العربي ومجتمعه على جميع الصعد المذكورة.

لهذا نجد في كتابه يعد من بين العلامات الفارقة في الفكر العربي

المعاصر وهو (الإيديولوجية العربية المعاصرة)⁽¹⁾ الذي وضع بحق الفكر

العربي في مواجهة الأصالة والاستمرار التاريخي والعقل الكوني والتعبير عن الذات، ويظهر هذا لدى المتدبر للفصل الأخير الذي أقامه على المنهجية التاريخية التي سلكها في كتابه ككل، وهو يبحث عن تلك الكيفية التي يعبر بها العرب عن ذواتهم، والأساليب المعتمدة في ذلك، ومدى تمكنهم من تشييد أدب بأشكال جديدة بعيدة عن التقليد، وهم يجابهون سؤال النهضة الذي ظل غامضا وعائما في الفكر العربي، لأسباب عدة أهمها حسب العروبي السبب التاريخي الذي عاشته أغلب الدول العربية، لينعكس سلبا على إنتاجها الإبداعي، الذي سيقى لزمان طويل اتباعيا للحظات تاريخية لم يسهم فيها، لبيدع أشكالا متفاوتة في الجمالية والفنية، لهذا يرى بأن "الفن في حالتنا لم يلعب أي دور إنقاذي أو إيضاحي"⁽²⁾ لارتباطه كما أسلفنا بأسئلة النهضة العربية.

وإيماننا منه بأن الفن والأدب لهما دور نقدي وثوراني في المجتمعات، أراد أن يكتشف هذا في تاريخ الأدب العربي وأساليبه التعبيرية من خلال وضع تحقيقات تاريخية له، والتي قسمها إلى ثلاث حقب⁽³⁾:

1-مرحلة كلاسيكية جديدة: حيث استدعى في هذه المرحلة كل الأشكال الأدبية الكلاسيكية، ليتم تحديث محتواها من جديد، فيتحول الشعر الغنائي إلى نشيد وطني، والمقامة إلى انتقاد اجتماعي هجائي، والنبذة الإخبارية أو التاريخية إلى برهنة سياسية، لتقترب هذه المرحلة مما سماه (بايديولوجية الشيخ)⁽⁴⁾ وهي الإيديولوجيا السائدة وقتئذ، فلا يمكن تحليل هذه المرحلة إلا من خلالها، ويضرب مثلا على ذلك بالصدافة التي كانت تربط محمد عبده وحافظ إبراهيم وخليل مطران، لنكتشف تلك الوحدة الإيديولوجية، والدارس المتدبر لهذه الحقبة يمكنه أن يكون مفهوما عن الذات، وعن العلاقة مع الغرب، وللتاريخ العربي بمجمله من وجهة نظر النزعة الوضعية للشيخ.

2-المرحلة العاطفية والحالمة: يرى العروبي بأن هذه المرحلة انتعشت في ظل شعار الليبرالية أين جلب معها أمواج الرواية التي علت على باقي قيم التعبير التي سادت لفترات متباينة، لتصبح الرواية من بين الأشكال العليا للتعبير التي لا تدعو للشك ولا للنقاش، كما نجد من الجهة المقابلة ظهور النظام البرلماني كشكل جديد داخل هيكل النظم السياسية الديمقراطية، لتؤكد المرحلة السابقة والمتمثلة في الأدب الكلاسيكي على أنها لم تكتشف الرواية مثلما أخذ على الخلافة بكونها ليست ديمقراطية، وهذا ما ظهر في معارك أدبية كثيرة على رأسها معارك طه حسين الأدبية المعروفة.

3- المرحلة الواقعية: يركّز العروبي على هذه المرحلة، كونها مرحلة حاسمة في تشكل الوعي الاجتماعي من جهة، وعلى الدولة القومية من جهة أخرى، ففي هذه المرحلة يتوحد شكل الإنتاج عبر الروايات والقصص والمسرحيات، ليرى بأن هذه المرحلة يهيمن عليها الإنتاج الروائي لنجيب محفوظ وبخاصة ثلاثيته الشهيرة، التي تظهر العلاقة الوطيدة بين الأدب والنزعة الوضعية للبرجوازية الصغيرة.

فالعروبي في هذه التحقيقات ينطلق من جدلية الفكري والأدبي التي بقدر ما تنفصل فهي في اتصال دائم، لأن التحقيق الذي وضع لا يدعو أن يكون تحقيقاً مرحلياً يمكن تعميمه على كافة البلدان العربية في لحظة تاريخية بعينها، شأنه في ذلك شأن الوعي الذي يؤطره في نفس اللحظة، غير أن المرحلة التي عرفت تواتراً وتوازناً في رأيه هي المرحلة العاطفية، غير أن المرحلة الواقعية هي ما كان ينشده الإنسان العربي عامة والمبدع على وجه الخصوص في ذلك الوقت، لهذا احتاج إلى عقل تاريخي يقوم بتحديث عقليته، وإلى نقد إيديولوجي يحل من خلاله ظواهره الاجتماعية والأدبية ليخرج مثقفة من أزمته.

2- ميزان العقل التاريخي وأزمة المثقف العربي: كان العقل التاريخي هو عقل ناظم لوعي المثقف عامة والمثقف العربي على وجه الخصوص بتلك البنات الإيديولوجية والسياسية والثقافية التي يتحرك من خلالها المجتمع العربي، غير أن هذا العقل لم يتشكل بعد التأزم الذي يعرفه الراهن العربي من جهة، والأزمة التي يعيشها المثقف العربي من جهة ثانية. ولا يمكن وجود بدائل وحلول لهذه الأزمة في رأي العروبي إلا بفهم مكن التأخر التاريخي، والنقص في النقد الإيديولوجي⁽⁵⁾ الذي يربط الذهنيات قبل الممارسات التي ستنعكس سلباً على تحديث العقل العربي.

وليجيب العروبي في البداية على هذا التأخر التاريخي، ربطه بما عرف الغرب وما عرفه العرب من تغيرات العميقة التي عرفت على المستوى التاريخي والإنساني يقول: "عرفت الإنسانية الحديثة ثورة دينية، وثورة ديمقراطية، وثورة صناعية، كل واحدة منها تعبر في ميدان خاص وبكيفية خاصة عن تطور المجتمع كوحدة متكاملة. ونتج عن هذه الثورات انقلابات في الفكر تستحق أيضاً اسم الثورات: العلمية، والتاريخية، والعقلانية ثم عبرت عن هذه الثورات إيديولوجيات مختلفة أهمها الليبرالية والاشتراكية"⁽⁶⁾.

وإذا ما قارنا ما عاشه الغرب منذ القرن السادس عشر على جميع المستويات وما أفرزه من حادثة تعد خلاصة هذه التجارب لن نجد لها في البلدان العربية، فمجتمعاتنا لم تعرف سوى الثورات الوطنية التي امتزجت فيها ثورات عدة⁽⁷⁾ غير أنها لم تتمكن من أن تستوعب كل الثورات التي عرفها الغرب وكانت نتيجتها تشييد مدن كبرى اعتبرت سمة لحداتها ومدنيتها وعقليتها الحضرية، غير أننا نجد مثل هذا العمران اليوم في البلدان العربية، دون أن يرنكز إلى ذهنية مدنية، فالسيادة فيها للاستهلاك لا للإنتاج، ليصبح العلم فيها مجهودا فرديا منعزلا، وليس نشاطا جماعيا، ليصبح الجو الثقافي نائما لا يدعو إلى التواصل ولا إلى التداول، لهذا يقول العروي عن الذهنية المدنية أنها "جو ثقافي مدني، جو يتواصل فيه الناس بسهولة وتتجه فيه اهتماماتهم نحو الإنتاج وتطوير الطبيعة"⁽⁸⁾.

فالتأخر التاريخي ما هو إلا تأخر في الذهنيات أو لنقل أكثر دقة تأخر إيديولوجي، وهذا ما سنتبينه في شخصيات العروي الروائية والواقع المجتمعي الذي تعيشه، والذي يعيشه كل العالم الثالث الذي يحمل قابلية للتبعية للغرب ولا يمكنه أن يبدع عقلا تاريخيا، أو أريد به ألا يبدعه، فلهذا يلح العروي على أنه لا مناص من النقد الإيديولوجي لتحديث العقل العربي من جهة، وإخراج مثقفه من أزمتة.

*** من النقد الجامعي إلى النقد الإيديولوجي:** سنعمل على استثمار الإشارات التي حاور بها العروي النقد الجامعي، من خلال بديل نقد آخر وهو النقد الإيديولوجي الذي سيسمح بقراءة واقعية للإنتاج الأدبي، لما يعرفه النقد الجامعي من نقص في التحليل، فلهذا السبب كان النقد الإيديولوجي المنهج والسبيل لتجاوز النقص الإيديولوجي والتعبير الفكري الحقيقي عن التأخر التاريخي⁽⁹⁾.

ففي معرض تفكير العروي حول التحقيب الممكن لتاريخ الأدب العربي، نجده ينقد الآلة التحليلية للإنتاج الأدبي العربي والمتمثلة فيما سماه بالنقد الجامعي الذي لم يستطع أن يفسر الواقع الاجتماعي⁽¹⁰⁾ ويرجع هذا لعدة أسباب منها:

- حال المجتمع الذي تنتشر فيه الأمية، وتدني مستوى الحياة، وقلة الصحافة والنشر، والدور الثانوي للمرأة...

- ضعف المهارة الفنية والتقنية، والسيطرة غير الكافية على الشكل، ويظهر هذا في عدم التجانس بين الأدب الكلاسيكي والأدب المعاصر، وعدم وجود استمرارية للأجناس في حدّ ذاتها، لا بين الشعر الغنائي والمسرحية، ولا بين المقامة والقصة والرواية، وهذا أشار إليه كل من طه حسين ومحمد مندور في كتابتهما النقدية.

- بنية اللغة التي لم تساعد على خلق أسلوب جديد يعبر عن هذا العالم المتطور بسرعة، لهذا كثيرا ما يعاد طرح مشكلة اللغة التي يكتب بها المبدع، وهل عليه أن يبحث عن لغة جديدة كلما تصدى لكتابة عمل إبداعي.

فعلى الرغم من أن النقد الجامعي يبدو كما يرى العروبي غنيا ومنقبا ومتنوعا، غير أنه في واقع الحال يبقى سطحيا لا يجيب عن كل الأسئلة الجمالية ولا التاريخية، لذا كان على المفكر والناقد أن يجتهدا لإيجاد بديل تحليلي، وهو النقد الإيديولوجي الذي يعتمد أساسا على نتائج الأعمال الجامعية ليخوض معركته بحثا عن المعنى⁽¹¹⁾ وفي هذا البحث سيتم فصل على نفسه في مستويين دراسيين :

1- مستوى الدراسة الموضوعية: وهذه الدراسة تعتمد إلى تفسير الأعمال الأدبية بالرجوع إلى ظروفها التاريخية والاجتماعية.

2- مستوى الدراسة الذاتية: وتهدف هذه الدراسة بالأساس إلى إثبات هذا الضعف الذي كان يمكن أن يعوض أو يلغى بالتزام لصالح الطبقات المعدمة، خالقة القيم.

ليعمد العروبي إلى تقديم تحقيقات ثلاث لتطور النقد الإيديولوجي في الساحة النقدية والأدبية العربية⁽¹²⁾:

1- حقبة أولى، تحتمي تحت شعار النزعة الذاتية المنفلتة من عقالها، يتزعمها كل من (المازني، العقاد، هيكلي..)، جاءت ثورة على أقطاب الأدب الكلاسيكي وحماة القواعد (أحمد شوقي، خليل مطران...)

2- حقبة ثانية، يظهر فيها النقد الإيديولوجي متأثرا بالبرجوازية الصغيرة باسم (الفعالية والالتزام)، تهيمن شخصية طه حسين على هذه الحقبة، غير أن مشكل اللغة لم يعرف حلا، فبقيت اللغة المستعملة لغة عالمية، على الرغم من تبسيطها كما يظهر في بعض مسرحيات توفيق الحكيم، التي تحاول التخلص من الغموض والتجريد.

3- حقبة ثالثة، في هذه الحقبة علا صوت الواقعية بعد الحرب العالمية الثانية، والتي استطاعت أن تزحزح النزعات السابقة، لقدرتها على الوصول إلى قطاعات كبيرة من المجتمع، باستعمالها للغة بسيطة يعاد تجديد الجمال الأدبي من خلالها، ليستعير النقد الإيديولوجي أسلحته التحليلية من الماركسية الوضعية النزعة كما سيتجلى في أعمال محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس⁽¹³⁾ وهذا النقد الباني الذي جاء ليكشف عن تغيرات حصلت على بنية المجتمع العربي من حيث تنقلاته المكانية من المدينة القديمة على المدينة الجديدة، والتناقضات الحاصلة على مستوى اللغة والملابس والأثاث... هذا ما أظهره نجيب محفوظ في أعماله الروائية الواقعية.

ف نجد في الأخير أن أزمة المثقف العربي برأي العروبي لا تجد حلا لها إلا في تسليحها بالنقد الإيديولوجي الذي لا يمكن أن يمارسه إلا من خلال الماركسية، والماركسية الإيديولوجية أو التاريخية تحديدا، ووعيه التحليلي بها سينتشله من هوة التأخر التاريخي، وتحديث عقله، ولهذا السبب كانت التاريخية دعوة إلى تحديث العقل العربي إذ يمكنها إخراج المثقف العربي من أزمتها ما إن يعي بها وبرهاناتها⁽¹⁴⁾.

- جعل الماركسية التاريخية منهاجا وسبيلا في التحليل العلمي.

- تعريب الماركسية وليس نصوصها، مما سيؤدي بالمثقف العربي إلى تحديد خصمه وكيفية مجابهته.

- لا يكون تدارك التأخر التاريخي من قبل المثقف إلا بنهضة ثانية، أين تصبح النهضة موضوعا للتفكير، وطريقة للتدبير، ووسيلة للتعبير.

- تحديث الذهنيات قبل التقنيات، وهذه أهم النقاط التي إن حققت كنا أما الطريق السليم لتحديث العقل العربي، وإخراج المثقف من عزلته.

3-ترجمان العقل التخيلي عند عبد الله العروبي: لقد عرفنا الدور المهم الذي يلعبه النقد الإيديولوجي في تحديث العقل العربي، وكيفية إبعاد المثقف العربي عن التأخر التاريخي، بهذا سيبنى العقل التاريخي الذي نجد من بين مراتبه العقل التخيلي المتمثل في تلك الأشكال التعبيرية الأدبية التي نظر إليها العروبي من قبل والتي جعلها لا تخرج عن جدلية الفكري الأدبي، لأن كل واحد يعبر بوسائله عن الواقع الاجتماعي.

وهو يرى أن قمة التعبير عن هذا الواقع الاجتماعي لا يكون إلا من خلال هذه الأشكال الأدبية وعلى رأسها الرواية، والتي هي في البلدان العربية خارج

التاريخ، لأنها لا تهتم بالمركز ولكن بالأطراف، كونها لم تعرفها في تاريخها بل اكتفت بمحاكاة الوافد منها من الغرب⁽¹⁵⁾.

هذا من حيث الوعي والتاريخية، أما من حيث موضوعها، فهي كانت تعمل على الكشف عن بنية اجتماعية عبر تجربة فردية وعن نجاحاتها وإخفاقاتها المباشرة وغير المباشرة⁽¹⁶⁾ لأن الموضوع في حد ذاته لم تكن له قاعدة في المجتمع العربي، لعدم معرفته بانتقالات كبرى، وطبقات متباينة، لهذا يضرب العروبي المثل بأعمال نجيب محفوظ الروائية، التي لم تعبر عن البرجوازية الصغير، بقدر ما عبرت عن بؤس وخيبة وأزمة المثقف البرجوازي الصغيرة، ولهذا كان يرى قبل أن يكتب الرواية ويساهم بتغيير أساليب التعبير، أن القصة هي أصدق معبر عن الراهن المجتمع العربي⁽¹⁷⁾.

وهذه الأطروحات الفكرية السابقة للعروبي، حول المثقف العربي المنعزل، والتأخر التاريخي، والنقص الإيديولوجي، أكدت عنده ضرورة تبني النقد الإيديولوجي في التحليل وفي التعبير، إذ جعل من هذا النقد خلفية معرفية في التعبير عن الكلمات والأشياء ونقدها، وعلى الرغم أنه يشير دائما للذي يريد أن يقرأ رواياته أن لا يذهب للبحث عنها في ما يقدمه من أفكار لاختلاف العالمين، غير أننا نرى في هذا الأمر فصلا منهجيا لاستحالة الفصل بين الكاتب وأفكاره الحاملة لإبداعاته، ودليل ذلك ما أشار إليه في مقدمة روايته الغربية بقوله: "درست منهجيا علاقة الماضي بالحاضر في أذهان العرب المعاصرين، كما حاولت أن أحدد مدى تأثير التنظيمات الاجتماعية العتيقة في حياة الغاربة اليوم. لكن الدرس المنهجي سبقه تصور مباشر لازدواجية العقل والذوق والإحساس التي عرفها كل من عاش في مجتمعنا مرحلتين تاريخيتين واغترف من ثقافتين متنافرتين...."⁽¹⁸⁾.

وبهذا يكون من الصعب أن نستل المفكر من عجينة الكاتب⁽¹⁹⁾ لهذا سنعمل على قراءة أهم عمليين روائيين للعروبي (الغربة واليتيم)⁽²⁰⁾ من خلال قراءة انخرطت في مسلك النقد الإيديولوجي، والبنوي التكويني تحديدا⁽²¹⁾ قصد الكشف عن التغيير الحاصل في رؤية المفكر-الروائي لواقعه ومجتمع، منطلقين من الفكرة-المفتاح التي توظف العمليين الروائيين كما تتجلى في كتابه الإيديولوجيا العربية المعاصرة⁽²²⁾:

- التعريف بالذات... فقبالي يوضع الآخر... لأن وصف العرب لذاتهم يعني تقديمهم تاريخا حقيقيا لفكرتهم عن الغرب في الوقت نفسه.

- علاقة العرب بماضيهم، وما معنى الذي يعطونه للتاريخ العربي المعروف بنجاحاته وانهزاماته.
- القواسم المشتركة بين الغرب والعرب، ضمن ما يعرف بكونية العقل، والمنهج الذي يتخذه العرب لتحليل ذلك.
- ما هي الممكنات الأدبية والأسلوبية للتعبير عن هذا الوضع الانتقالي الذي يعيشه العرب بكل ما يحمله من تساؤل وشك.

*** الغربية بين أزمة المجتمع وصورة الغرب:** القارئ لرواية الغربية، سيجدها تتوغل في الماضي على شكل إحالات إلى سنوات الحرب العالمية الثانية، غير أن أحداثها دارت في مجملها في الفترة القريبة من الاستقلال، حيث نجد شخصيات عديدة يربطها هذا الماضي المجيد، والحاضر المتأزم، والمستقبل الغامض، ويبقى الجامع بينها هو ذلك الحاضر الذي حمل إليهم شعورا بالخيبة والفراغ القاتل، متجليا في الشخصيات الثنائية التالية (شعيب وزوجته)، (إدريس/مارية)، (عمر/مريم)، (أبو شعيب/ عائشة البحرية).

وإذا انطلقنا في التحليل من النقطة الرابعة المرصودة أعلاه، وهي ذلك الشكل الأدبي المتمثل في الرواية، الذي أراد العروبي من خلالها أن يجيب عن باقي النقاط الثلاث الباقية، سنجدها تتمظهر في هذين المستويين⁽²³⁾.

1- مستوى الشكل: تعقد شكل رواية الغربية، وبنائها الفني، وهذا التعقيد يعبر بوضوح عن طبيعة الموضوع المعالج، مما انسحب على مستوى المضامين لتختل بذلك القيم التي تتعامل معها الشخصيات.

-غموض دلالاتها، وهذا لإغراقها في التعبير عن العواطف أكثر من تصوير الأحداث، لتبتعد بذلك عن الأسلوب السردي الذي يختص بالوصف الاجتماعي، لتستبدله بالرمز الأسطوري⁽²⁴⁾ مثل (أبي شعيب وعائشة البحرية)، مما ساعد على تقوية مضمون التباعد بين باقي الشخصيات مثل (إدريس ومارية).

2- مستوى المضمون: لقد رصدت الرواية الحالة النفسية لفئة اجتماعية كانت من أشد الشرائح معاناة وخيبة، التي تكشف عنها النضال في مرحلة الاحتلال الأجنبي، بذلك قدمت رؤية عامة عن الوضع الاجتماعي في فترة حاسمة من تاريخ المجتمع المغربي، وهي الفترة القريبة من لحظة الاستقلال أين كان المجتمع ما يزال يعرف حراكا، وعبرت عنه الرواية بكونها بداية المأساة لجيل بكامله⁽²⁵⁾.

-كشفت الرواية عن نهاية الصراع بين الاستعمار والمجتمع المغربي، غير أن هذا الصراع أبقى الوضع بشكل يقارب ما كان عليه سابقا، كما كشفت عن صراع داخلي بين شرائح المجتمع المغربي، وانكشاف لعبة النضال

الاجتماعي وظهور الأطماع والجري وراء المصالح الشخصية، فيما فنات أخرى تعيش الفقر والقهر.

لم تنظر الرواية للغرب كحضارة بديلة (كما في رواية في الطفولة لعبد المجيد بن جلون 1957)، كما أن شخصياتها لم تنسلخ عن تفكيرها بوضعها الذاتي داخل المجتمع، بل نظرت للغرب كمكان صالح للهرب لفترة معينة من الزمن، وكمكان صالح لإنضاج الوعي الصحيح للوضع الخاص، لهذا رأى العروي أن المثقف العربي يعيش بأفكاره في عالم وبذاته في عالم آخر، وهو لذلك يحس على الدوام بالاعتراب والضياع⁽²⁶⁾.

إن رواية الغربية تعكس الأزمة والانتكاسة التاريخية التي وقعت فيها بالأساس فئة البرجوازية الصغيرة، كما أنها تصوّر فشل الفئات الفقيرة التي ساهمت في النضال وحالة الوعي الغائب عندها، فأوكلت الرواية إلى فئة البرجوازية الصغيرة للتعبير عن هذه الأزمة وهذه الهموم، باعتبار أن هذه الفئة تعتبر هي الحارس الأمين على القيم الاجتماعية في العالم العربي كما يطرحه العروي في تحليلاته الفكرية⁽²⁷⁾.

من خلال هذا النقد الإيديولوجي نخلص بأن رواية الغربية تعبر عن أزمة المجتمع المغربي من منظور البرجوازية الصغيرة المهوسة بالغرب⁽²⁸⁾ لتستمر هذه الأزمة في رواية اليتيم والتي ستعتمد إلى الكشف عن يتم متعدد وهي تشرح وتفسر برؤية ناقدة للواقع الاجتماعي في مجابهته للذات (أنا) والآخر (الغرب).

*** اليتيم، بين يتم الواقع و(م) يتم الغرب:** لقد قلنا سابقاً أن رواية اليتيم هي امتداد تاريخي وتخيلي لرواية الغربية، لأنها تسترجع كافة شخصياتها المركزية (إدريس/ مارية) بالأساس وهي تتطور، وتجب عن بعض الأحداث التاريخية بخاصة أحداث الاستقلال، والأسئلة التي ما تزال عالقة من قبل، وأسئلة ظهرت من بعد التغيرات الاجتماعية الحاصلة.

فرواية اليتيم هي استمرار للتطور الحاصل في الرؤية النقدية الاجتماعية عند الكاتب، وكذا موقفه من الغرب وما طرأ عليه، فإذا نظرنا إلى الرواية:

1- على مستوى الشكل: سنجدها لم تخرج عن الأسلوب الإيحائي الذي اتبعته رواية الغربية، بلغتها الروائية المرهفة والشاعرية القريبة من البوح

الهادئ منها إلى الحديث المرتفع⁽²⁹⁾ غير أن الناظر إلى التقنية الزمنية المتبعة في الرواية، قد ابتعدت قليلا عما ورد في الغربية من تعقيد، وهذا بتركيزها على الصوت الواحد للسارد، ويظهر هذا جليا في اللوحات الإيحائية القصيرة وبخاصة في فصل (رؤيا) حيث يعلن المشهد عن قرب اختفاء (مارية) عن (إدريس) نهائيا في (ساحة الفنا)، فالوظيفة التي حملتها هذه الرؤية زمنيا تجعلها خارج الزمن الروائي، لنجد أن هناك الكثير من هذه الإيحاءات اللازمية في الرواية.

2- على مستوى المضمون: لقد هيمن على الرواية الصوت الواحد الأقرب لسيرة الذاتية، إلا أن البطل/الشخصية المركزية (إدريس) لم يفصل همومه الخاصة عن هموم عامة المجتمع، فهناك علاقة متينة بينهما، ولا يمكن الفصل بين المأساة الذاتية عن المأساة الموضوعية⁽³⁰⁾ لهذا صور اليتيم في دلالات ومعاني متعددة في الرواية، منها:

- يتم ذاتي: موت الأب، موت الأم، موت الابن، فهذا الفقد المادي والمعنوي أبان لنا عن بطل إشكالي بالمعنى (الغولدماني)⁽³¹⁾ وهو (إدريس) وهو يبحث عن قيم جديدة دون جدوى، فهو يعيش بؤسا وحرمانا وضياعا، ويعاني إهمالا للذات، وفقدانا للهوية، وانكفاء على الذات، فهو يعيش في مدينة مسلوقة لقيم المدنية وعقليتها مما ينعكس سلبا على واقعه الاجتماعي وأحسّ بغربة ويتم وانعزال كما يعيشها أي متقف عربي.

- اليتيم في الواقع الاجتماعي: إن صيحة (إدريس) في الرواية ستبقى مدوية (كلنا يتيم...) ⁽³²⁾ غير أن هناك فئات دون أخرى تحياه حقا وهي فئة المثقفين البرجوازيين الصغار، تلك الفئة الساهرة على حماية القيم في المجتمع، والتي تمثل الإيديولوجيا غير السائدة فيه تعمل جاهدة على شرح الواقع ونقده، على عكس الإيديولوجيا السائدة التي تتكلم عن الواقع كأنها لا تعيشه، لهذا فإن رواية اليتيم تقارن بين مضمونها ومضمون الواقع الموضوعي كما تراه البرجوازية الصغيرة⁽³³⁾.

- اليتيم في العلاقة مع الغرب: لقد تعاملت رواية اليتيم مع الغرب تعامللا أكثر صرامة وشدة مما وجدناه في رواية الغربية، وإن كان بصورة غير مباشرة، ولكن كان حاسما مع الغرب الاستغلالي والاستعماري القديم والجديد، خاصة في أساليبه العدائية التي تضمن بها تبعية العالم الثالث لها. فقد فكت رواية اليتيم كل أشكال الارتباط مع الغرب ولو كان في جوانبه الإيجابية⁽³⁴⁾ فالشخصية المركزية (إدريس) أدرك أن رحلته إلى الغرب لن تنفعه في وجود حل لوضعه الداخلي فهو يقول "ها أنا لا أبرح المغرب منذ عشر سنين اختيارا لا اضطرارا"⁽³⁵⁾ كما أن الشخصية المحورية الأخرى (مارية) التي كانت حبه

وأمله في رواية الغربية تحولت في رواية اليتيم إلى خطر كبير له ولمجتمعه بعد عودتها من الغرب ممسوخة لتमार الخيانة العظمى في حق بلدها.

*** على سبيل الخاتمة: (من رواية المجتمع إلى مجتمع الرواية):**

نخلص في الأخير إلى أن ما يميز عبد الله العروى عن باقي الروائيين هو ذلك الانسجام التخيلي والاتساق الفكري، بين مضمون رواياته ومضامين كتاباته الفكرية، فعلى الرغم من أن الروائيين لم تقدموا بديلا فكريا مثل كثير من الروايات العربية، فحسبها أنها بشرتنا بمعالم فكر جديد بدأ يظهر منتقدا للواقع المغلق، ومنفتحا على واقع جديد.

وقبل خروجنا من هذه الجدلية الفكرية والأدبية عند عبد الله العروى، انتبهنا إلى إشارة فكرية عميقة يمكن أن تتأسس عليها نظرية نقدية تدرس الرواية ليس كموضوع جمالي فقط، ولكن كموضوع للتفكير وطريقة في التحليل، وهذا لما نعكس معادلة البحث عن الاجتماعي في الروائي، بل أن نبحث عن الروائي (التخيلي) في الاجتماعي، وهي من الطروحات النقدية الأثرية عند المشتغلين على السوسيو-نقد مثل (كلود دوشي وبيار زيمبا) في بحثهم عن مجتمع الرواية بعدما طال البحث في النقديات عن رواية المجتمع.

يقول العروى عن هذه الفكرة التي سبق إليها الكثيرين وهو يتحدث عن أشكال صيغ التعبير ومنها الرواية: "قبل التفكير في قضايا تقنية روائية خالصة: خلق الشخصيات، بناء العقدة، وتيرة السرد، طبيعة الحوار، وفي علاقات جميع هذه العناصر بالدينامية الاجتماعية كما يفعل النقد الجامعي العربي، كان الأجدى بالتأكيد أن نطرح على أنفسنا السؤال الحاسم في النهاية: ما هو الشيء الروائي في مجتمعاتنا؟ ما أحد حلم بعد عندنا برواية كلية، شاملة موضوعية أو ذاتية، تستعير معمارها من بنية المجتمع، وتفسح مكانا لتعايش فيها الأنواع والأساليب المختلفة كما يتضمن المجتمع الجماعات والطبقات المتعارضة جدا..."⁽³⁶⁾ فهذا السؤال قد سبق زمنه، غير أن العروى وإن كان يرى الإجابة عنه فيما تقدمه الرواية الواقعية، غير أنه بعدة فترة من الزمن يطالعنا برواية حوارية بالمعنى الباخثيني⁽³⁷⁾ مبنية أساسا على تعدد الأصوات وتقارب بنية المجتمع الواقعي، فاستطاع بهذا أن يفكر في مجتمع الرواية في

رواية (الفريق)⁽³⁸⁾ التي تعد ثلاثية ختم بها روايتي (الغربة واليتيم)، فهي رواية تستدعي كل من شخصية (شعيب وإدريس وعمر ومريم) وهي عناصر ستكوّن هذا الفريق بكل ما يحويه من تعديدية في الأصوات والمواقف، فقد استعار العروبي معماره من بنية المجتمع وهي لعبة يحبها قطاع كبير من المجتمع وهي كرة القدم، وفيها تتعايش الشخصيات واللغات، وإذا ما اعتمدنا على تحليل إيكو لكأس العالم والفرق الرياضية في بعدها السيميائي، سنفهم وظيفة مجتمع الرواية داخل المؤسسة الأدبية العامية عامة، والعربية على وجه الخصوص، وحسبنا أننا وضعنا إشارة يمكن أن ننطلق منها لبحث جديد، أو ينطلق منها باحث آخر أسعفه الجهد المعرفي والقرائي، لننهي بعبارة ميرلو بونتي أنه لا يخلو عمل إبداعى من أن يطرح مقولة فلسفية ورؤية معرفية سبق وأن نظّر لها صاحبها في أعماله الفكرية وبنّنها في أعماله الروائية السابقة واللاحقة.

الهوامش:

- 1- عبد الله العروبي، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ترجمة محمد عيتاني، دار الحقيقة، ط1، سنة 1970، بيروت لبنان.
- 2- المرجع نفسه، ص. 157.
- 3- نفسه، ص 157-159.
- 4- نفسه.
- 5- Abdallah Laroui, la crise de intellectuels arabes : traductionnalisme ou historicisme ?, ed. Maspéro, paris, 1974, p.115.
- 6- عبد الله العروبي، العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة، ط3، سنة 1980، بيروت لبنان، ص 140.
- 7- المرجع نفسه.
- 8- عبد الله العروبي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، سنة 1983، الدار البيضاء، المغرب، ص 140.

- 9- سعيد بنسعيد، النقد الإيديولوجي وتحديث العقل العربي، ضمن كتاب: محاورة فكر عبد الله العروى، جمعها ورتبها بسام الكردي، المركز الثقافي العربي، ط1، سنة 2000، الدار البيضاء، المغرب، ص 152.
- ينظر أيضا: كمال عبد اللطيف، درس العروى حول المشروع الإيديولوجي التاريخاني، ضمن كتابه: التأويل والمفارقة (نحو تأصيل فلسفي للنظر السياسي العربي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص 125-151.
- 10- عبد الله العروى، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ص 159 .
- 11- المرجع نفسه، ص 161 .
- 12- نفسه.
- 13- نفسه، ص 168 .
- 14- سعيد بنسعيد، النقد الإيديولوجي وتحديث العقل العربي، ص 155.
- 15- عبد الله العروى، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ص 176 .
- 16- نفسه.
- 17- نفسه، ص 177-178 .
- 18- عبد الله العروى، رواية الغربة، دار النشر المغربية، سنة 1971، (ينظر ظهر الغلاف).
- 19- أحمد المديني، الكتابة السردية في الأدب المغربي الحديث (التكوين والرؤية)، مطبعة المعارف الجديدة، ط1، سنة 2000، الرباط، المغرب، ص 312 .
- 20- عبد الله العروى: - رواية الغربة، دار النشر المغربية، سنة 1971.
- رواية اليتيم، دار النشر المغربية، سنة 1978 .
- 21- حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي (دراسة بنيوية تكوينية)، دار الثقافة، ط1، سنة 1985، المغرب.
- 22- عبد الله العروى، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ص 20 .
- 23- حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي (دراسة بنيوية تكوينية)، ص 286 .
- 24- حميد لحميداني، في التنظير والممارسة، دراسات في الرواية المغربية، منشورات عيون المقالات، ط1، سنة 1986، الدار البيضاء، ص37 وما بعدها.

- ينظر أيضا: صدوق نور الدين، عبد الله العروي وحداثة الرواية (قراءة في نصوص العروي الروائية)، المركز الثقافي العربي، ط1، سنة 1994، الدار البيضاء، المغرب، ص 19-42 .
- 25- أنور المرتجي، البنيات الأساسية في رواية الغربية لعبد الله العروي، المحرر الأسبوعي الثقافي 16 أكتوبر 1977، ص 07 .
- 26- محمد عابد الجابري، مساهمة في النقد الإيديولوجي، المحرر الثقافي 28 ديسمبر 1974، ص 3 .
- 27- عبد الله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ص 278 .
- 28- حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي (دراسة بنوية تكوينية)، ص 263 .
- 29- نجيب العوفي، النسق المعماري في رواية اليتيم، ضمن كتابه: درجة الوعي في الكتابة (دراسة
- 31 -Lucien Goldmann, pour une sociologie du roman, ed. Gallimard, Paris, 1964.
- 32- عبد الله العروي، رواية اليتيم، ص 38 .
- 33- حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي (دراسة بنوية تكوينية)، ص 329-336 .
- 34- المرجع نفسه، ص 358-359 .
- 35- عبد الله العروي، رواية اليتيم، ص 16 .
- 36- عبد الله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ص 174، (والتشديد من عندنا لنبيين أهمية ما يطرحه العروي).
- 37 -Mikhaïl Bakhtine, poétique de Dostoïevski, ed. du seuil, paris, 1986.
- Esthétique et théorie de roman, ed. Gallimard, paris, 1987.
- 38- عبد الله العروي، رواية الفريق، المركز الثقافي العربي، ط1، سنة 1986، الدار البيضاء.
- كما ينظر: الدراسة الهامة التي قدمها لها وكشف عن مستوياتها اللغوية ضمن حوارية باختين للناقد المغربي صدوق نور الدين:
- عبد الله العروي وحداثة الرواية (قراءة في نصوص العروي الروائية)، المركز الثقافي العربي، ط1، سنة 1994، الدار البيضاء، المغرب، ص 65-93.

